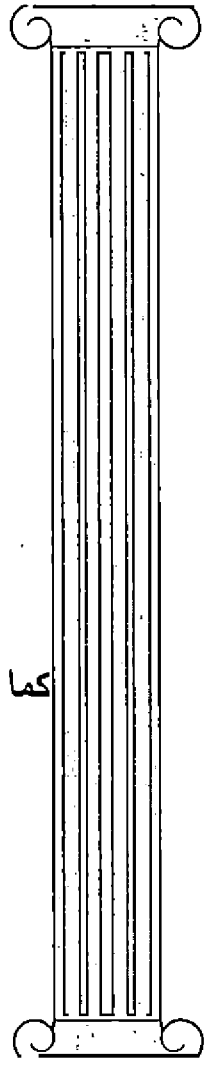

الفصل الأول

صورة عامة لتطور حياة

زكي نجيب محمود الفكرية

كما قدمها بنفسه فى صالون الأوبرا الثقافى

طُلب منى أن أقدم – هذا اليوم – صورة موجزة عن حياتى الثقافية ، وهى مشوار طويل .

ولأبدأ بالعشرينيات حينما كنت طالباً فى هذه الفترة فترة العشرينيات التى أعتبرها قمة النهضة الحقيقية لنا، لا بعدها ولا قبلها . فقد سبقها تمهيدات ، لكن فى العشرينات بعد ثورة ١٩١٩م مباشرة كانت الثورة سياسية فى المقام الأول تريد طرد المحتل من أرضنا .

لكن هذه الثورة السياسية تفجرت عنها عدة ثورات فى عدة اتجاهات؛ ثورة اقتصادية (طلعت حرب) ؛ ثورة موسيقية (سيد درويش) ؛ ثورة فى الشعر تبدت فى شعر العقاد أولاً على اعتبار أنه أول من جعل الشعر يتمحور حول الشاعر نفسه وليس للمناسبات الاجتماعية والسياسية ، ثم جماعة أبوللو ثانياً؛ ثورة فى النقد الأدبى .

وثورة النقد الأدبى منها تأتى ثورة الفكر كله . وهذا ما نجده عند العقاد أيضاً، ولكن عند طه حسين فى المقام الأول .

وقد قام طه حسين هنا بدور عظيم فى تاريخنا الفكرى من خلال النقد الأدبى ؛ لأنه أزال القداسة عن القديم وهذه خطوة هامة جداً فى النهوض . إن إزالة القداسة عن القديم لم يجعله ينقض القديم ، بل العكس فلقد أيده وعظم من شأنه ، ولكن هذا التأييد وهذا التعظيم يجيئان نتيجة بحث علمى وليس نتيجة أوهام أو عُقد أو أى موقف آخر تسوده العاطفة أو يسوده الإنفعال.

وهكذا فقد امتلأت العشرينات من هذا القرن فعلاً بإتجاهات جديدة؛ فقد كان كل كتاب يصدر، يصدر وكأنه خط فكرى جديد وليس مجرد كتاب!!

لقد كنت فى هذه الفترة طالبًا وقارئًا مجداً جداً . ولا أظن أن شيئًا فيما كتب فى هذه الفترة . كتبه هؤلاء الرواد العظام قد أفلت منى دون أن أقرأه .

وجاءت الثلاثينيات ودخلت معمعان الحياة العملية ، ومعمعان الثقافة العامة بكل قوتى، وبكل رغبتى . فقد كان هذا هو ما اخترته وما أميل إليه .

فى بدء الثلاثينيات كنت أعتقد أن زحمة الأفكار التى ملأت الجو على أيدى هؤلاء الرواد ليست كافية ؛ لأن المسألة ليست مجرد أفكار نتلقاها عن الغرب من جهة، وعن التراث من جهة أخرى. وقد كان هؤلاء الرواد يجيدون إجادة تامة هذين الطرفين ؛ فكل منهم كان يكاد يكون التراث على أطراف أنامله ، يعرفه معرفة جيدة كأنه فى بيته . وكذلك كان الأمر بالنسبة لما ينقلونه لنا من الغرب؛ وقد كان بعضهم ينقل من فرنسا عن الفرنسية ، وبعضهم الآخر ينقل من إنجلترا عن الإنجليزية .

لقد نجح هؤلاء الناس من الرواد فى أن يعطونا زاداً دسماً جداً عن ما هو التراث من خلال النفائس التى ينقلونها إلينا أسبوعياً ، أسبوعًا بعد أسبوع .ويعطوننا فكرة أيضًا عن ماذا يقوله أهل الغرب عندئذ فى عالم الفكر . لقد عرضوا لنا هذا وذاك بإجادة تامة وحقيقية .

ويعنى ذلك أنك كنت تقرأ لواحد من هؤلاء ؛ لطه حسين أو للعقاد أو المازنى أو هيكل فتستمتع بها غاية الإستمتاع، وإذا بك أيضًا فوق المتعة ازددت معرفة ببعض ما كان يدور على أقلام أدباء الغرب ومفكريه، وبعض ما تركه لنا الأوائل من أبائنا العرب والمسلمين .

ومع ذلك ، فما زلت أذكر كيف وقفت وقفة ذاتية، بينى وبين نفسى وقد امتلأت بكل تلك الأفكار عن طريقهم . لقد تساءلت : هل هذا يكفى ؟! هل يكفى أن توضع الأفكار فى صندوق الذاكرة وأسير بها كواحد يحمل حملاً؟!

لقد أحسست أن الذى ينقص هو أن أعرف المنهج الذى يفكر به هؤلاء الناس الكبار الذين ينقلون لنا أفكارهم من الغربيين .

إن الغربيين أو الغرب له منهج ، ومنهج مغروز فى طبائعهم عن طريق التربية ونظام التعليم . وله منهج يعنى له طريقة معينة فى التفكير . وقد كنت أحس بهذا حينما كنت أقرأ ما ينقلونه لنا من مولفات الغربيين . وتصادف أن تأكد لى هذا حينما بدأت أقرأ مباشرة لهؤلاء المفكرين

الغربيين وخاصة من الإنجليز على اعتبار أن اللغة الإنجليزية هى اللغة التى كنت أعرفها وأجيدها .

لقد كنت أشعر حينما أقرأ لهؤلاء أن الكتابة الأصلية عند صاحب الفكرة تشعرك باختراق الأفاق نحو مستقبل ما! . لقد كان الأدب الغربى كله فى تلك الفترة تواقا للطيران بأجنحة نحو مستقبل يختلف عن الواقع القائم، وقد كان الواقع القائم كله حروب، فقد كان ذلك بين حربين ، الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية .

فما هى الطريقة التى يفكرون بها حتى أتعلم منها ، فالمنقول عن التراث كان أقرب إلى محصول وجدانى لا يحرك العقل، على الأقل لا يُحرك عقلى أنا بالدرجة الكافية . فقد كانت نظرتى إليه نظرة جمالية أكثر ، لكن النظرة إلى ما أقرأه من الغرب أحسست أن فيها تحريك للعقل، فما أقرأه يولد دينامية داخل الكلمات مع أن الفكرة هى هى .

على كل حال ، فقد صممت حينئذ أن يكون تركيزى على أن أربى وأعلم نفسى . وأن يكون كل انتاجى منصبًا على التدرب على هذه الطريقة فى التفكير . فلقد اكتشفت أن الصواب هو أن أرد الأفكار كلها إلى طريقة التفكير فهذا هو المنتج . لكن من أين أبدأ ، ومن أين أستقى طريقة التفكير هذه؟!

طرأ على ذهني حينئذ سقراط ، فكرة سقراط ؛ فأعظم ما فى سقراط هو أنه وضع منهجًا نقل الفكر الفلسفى من محيط إلى محيط آخر ، وهو المحيط الصحيح . إذ ما هى الفلسفة ؟!

الفلسفة هى ما عرفه سقراط «بالممارسة»! هى رد المواقف الجزئية إلى أصولها التى نبعت منها . هذه هى الفلسفة فى كل عصورها؛ أمامنا مواقف جزئية، وأمامنا مفردات جزئية فى الحياة والأشخاص إلى آخره .. إن الفيلسوف لا يكتفى بالوقوف عند هذه المواقف والمفردات الجزئية ، إنما هو يريد أن يتجاوز هذا السطح المرئى المسموع ، يريد أن يتعقب هذه المواقف نفسها إلى أصولها ، إنه يحفر تحت الفكرة القائمة أو الموقف القائم ليرى الينبوع ، فإذا ماوصل إليه يكون قد وصل إلى المبدأ ، إلى الأساس أو إلى التعريف!

فلنفرض مثلاً أننا نبحث عن «الحرية» ، ونجد موقفًا نعرف فيه أن هذا الإنسان المعين يتصرف تصرفًا حرًا أو يفكر تفكيرًا حرًا . هنا يبدأ التفكير الفلسفى ؛ ماذا فى هذا الموقف فيجعله حرًا؟! يبدأ التفكير الفلسفى فى استخراج العناصر الأساسية التى تكوّن مفهوم الحرية . المهم أنه عندما يصل الإنسان إلى الفكرة الأساسية ، الفكرة الأصل والمبدأ. المهم أن تكتسب الفكرة حركية التنفيذ .

إننى عندما أستمع فقط إلى فكرة أحدهم أو أقرأها فى كتاب فإننى أكون قد عرفتها ولكنها لا تحركنى نحو أن أسلكها فى نسيج حياتى العملية!! أما تحليل هذه الفكرة فهو الذى يعطيها حركيتها ، يعطى الجوانب المُحركة – الحركية، يعطى شدة الفهم ، شدة النور الذى يلقى على هذه الفكرة المعينة.

لقد صممت أن أتبع هذا المنهج عند سقراط[1] ، فأخذت المحاورات السقراطية الأربع، التى هى محاورات أفلاطونية التأليف لكنها تسمى عادة «بالمحاورات السقراطية» لأن سقراط فى هذه المحاورات الأربعة يتحدث عن نفسه وعن أفكاره هو . أما فى بقية المحاورات الأفلاطونية فهو شخصية مستخدمة، استخدمها أفلاطون ليقول على لسانها أفكاره هو . لقد ترجمت هذه المحاورات الأربعة فى أوائل عام ١٩٣١م وعام ١٩٣٢ ، لكى أدرس على محمل التطبيق المنهج الذى أعرفه كعنوان «بمنهج سقراط فى التفكير» ، وهو رد المواقف الجزئية إلى المبادئ، لأنه عندئذ تتحول الفكرة العابرة إلى مبدأ أشبه بالمبادئ الرياضية، مبدأ ثابت . وكانت هذه الترجمة هى أول أعمالى.

أما المعلم الثانى فى الثلاثينات ، فهو أنه فى يناير ١٩٣٣م أخرج المرحوم أحمد حسن الزيات مجلة «الرسالة» . وبمجرد ظهور تلك المجلة أحسست فى نفسى أن هذا وسيط جيد أكتب فيه . وانتظرت قليلاً ثم

بدأت أرسل إلى هذه المجلة مقالات كانت كلها فى الفلسفة إما عن الأشخاص أشخاص الفلاسفة أو عن المذهب أو عن الأفكار الفلسفية . كنت أرسل هذه المقالات أسبوعاً بعد آخر بالبريد .

وفى آخر هذا العام الذى بدأت فيه مراسلة المجلة فكرت فى أن أذهب لأزورها وأتعرف على أحمد حسن الزيات. فسألت : وقيل لى : أنه لم يفتح مكتبًا خاص به إلى الآن . وأنه يجلس فى غرفة من غرف الشقة التى تسكنها لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وذات مساء ذهبت . وبالفعل وجدته جالسًا على مكتبه وأمامه صديق . فلما قدمت لهما نفسى رحبا بى ترحيبًا شديداً فرحت به فقد كنت شابًا صغيراً بالنسبة لهم ولم أكن أتوقع أن أكون موضع هذا التكريم كله . وعرفت أن هذا الصديق هو المرحوم الأستاذ أحمد أمين الذى سألنى : هل عندك مانع فى أن تنضم إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر . قلت له : أبداً فهذا شرف كبير جداً لى .

فقد كانت لجنة التأليف والترجمة والنشر تضم عدداً كبيراً جداً من نجوم المجتمع الفكرى فى مصر ، فضلاً عن أنها كانت هيئة شهيرة فى العالم العربى كله .

لقد أستأذن أحمد أمين من الأستاذ الزيات لينفرد بى، وأخذنى فى الصالة وقال لى : ما رأيك فى أن نخرج سلسلة نكتب فيها تاريخ

الفلسفة بالأسلوب الذى تكتب به المقالات لأنه أسلوب يضع الفكرة فى بيان مقبول جداً عند القارئ من أواسط المثقفين .

وكانت فرحة جديدة أن أكلف بهذا التكليف . وما كان منى إلا أن انصرفت لأبدأ فى إعداد الكتاب ؛ أولاً : قصة الفلسفة اليونانية . ثم بعده فى جزئين قصة الفلسفة الحديثة . وراج الكتاب بأجزائه الثلاثة رواجاً كبيراً يلفت النظر حقاً .

ولعل هذا النجاح هو الذى جعل أستاذنا المرحوم أحمد أمين يعرض علىّ مشروعاً آخر . وهو أن نقوم بعمل سلسلة أخرى فى تاريخ الأدب فى العالم. فقد كنت كثيراً ما أسأل عن هل هناك عند الأمم الأخرى الأدب والشعر المماثل للشعر والأدب العربى . لقد كان هناك جهلاً كبيراً بآداب الأمم الأخرى لدى الناس وحتى لدى من تخرجوا فى بعض الكليات والجامعات!!

على كل حال ، لقد كان هناك نقصاً كبيراً فى هذا المجال وكوننا فكرنا فى تقديم قصة تشرح الأدب العالمى عصراً بعد عصر ، فقد فكرنا فى شىء مفيد بالفعل. وقد بدأنا التنفيذ فعلاً، ولكن هذا المشروع قد أخذ مدة طويلة حيث استغرق العمل فيه حوالى عشر سنوات .

والغريب أنه قد أستخف بهذا العمل الكبير الضخم فى بعض الكتابات النقدية باعتبار أنه كتب للتبسيط . فلم يعطى له أحد أى قيمة!!

والحقيقة أن هذا التبسيط حينما يكون مطلوباً لا ينبغى أن يُستخف به. هذه واحدة. أما الأخرى التى لا بد أن أذكرها عن نفسى ولم يذكرها أحد عنى ربما لأنه لم يعرفها ، فهى أنه لو قلنا أن الفلسفة اليونانية قد وضعت مصطلحاتها العربية قديماً على أيدى العلماء العرب القدامى ، فإن الفلسفة الحديثة لم يكن قد سبق كتابنا فيها أى كتاب آخر اللهم إلا متناثرات هنا وهناك عن أى شىء يمس الفلسفة الحديثة ، أقصد الفلسفة الأوربية الحديثة .

إذن كانت هنالك مجموعة من المصطلحات الفلسفية الأوربية الحديثة كانت تتطلب أن تنقل إلى مقابلاتها العربية ! فمن الذى صنع هذا إلا نحن على طول السنين السابقة واللاحقة!! . وبالطبع كان من الطبيعى أن تسقط بعض هذه المصطلحات وأن يحل محلها مصطلحات أنسب . لكن بقت كمية كبيرة من هذه المصطلحات نحن الذين وضعناها . وهذا فضل يجب أن يذكر لنا .

أما فيما يخص قصة الأدب ، فقد كانت الكتب التى نقلنا عنها بها طبعًا نماذج معينة للشعر الذى نتحدث عنه فى السياق. وليس كل الشعر قابلاً للترجمة الجيدة، وكثيراً جداً ما تأتى الترجمة العربية للشعر الإنجليزى مسيئة له، ومسيئة للشاعر لأن النقل إلى العربية يفقده كل الرونق . وهذا ما جعلنى أتحمل عبء البحث عن نماذج أخرى غير

المذكورة فى الكتب التى نقلنا عنها، أعلم أو أرى أنها صالحة للترجمة دون أن تفقد رونقها كثيراً. وهذا عمل آخر يجب أن يحسب لنا .

إن هذه الكتب فى «قصة الفلسفة» و«قصة الأدب» صدر بعضها منذ ستين عاماً، وصدر بعضها الآخر منذ خمسين عاماً. ومنذ هذا التاريخ يعاد طباعتها مرة بعد أخرى ، ويعاد بيعها وشرائها وقرائتها مما يدلك على أن فكرة أن تعرض الفلسفة والأدب بأسلوب يفهمه كل من يستطيع أن يقرأ دون الإخلال بالمادة الأساسية ، كانت فكرة جيدة . وأعتقد أننا حينما قمنا بها أدينا خدمة كبيرة يمكن أن نطلق عليها «إعلام ثقافى» على مستوى رفيع.

على كل حال ، نحن لا نزال فى الثلاثينات ، ولدى فيها نقطة أخيرة مؤنسة ؛ فحينما دنوت من أواخر الثلاثينات كنت قد رأيت عن قرب كبار الرواد الذين كانوا يترددون على لجنة التأليف والترجمة والنشر، ورأيت منهم على مقربة ما لم أكن أتصوره على مبعدة!!

رأيت منهم ، أنهم برغم أنهم يتحمسون كل الحماس فى كتاباتهم للقيم الإنسانية وللحقوق الإنسانية ، للكرامة الإنسانية ، ولحرية الفرد ... إلخ.. يأبى الواحد منهم أن يكون هذا الحق إلا له هو ، وليس لأى شخص آخر وخصوصاً إذا كان أصغر منه سناً ، وأنا حقيقة لا أتحدث هنا عن نفسى، وصدقونى إذا قلت لكم أننى لم أكن أتحدث فى حضرة

هؤلاء الرواد لأننى كنت أجلهم إجلالاً وكأنهم ملوك على الأرض. ولم أكن مخطئًا فى هذا التصور لأنهم كانوا ينبوع الثقافة، كانوا محركوا ثقافتنا. لقد كنت أعرف قدرهم جيداً، ولكننى عندما كنت ألمح طريقتهم هذه فى التعامل كنت أجد أن ما يكتبونه وما يطلبونه لأنفسهم لم يكونوا يطيقون أن يروه مجسداً فى أشخاص أصغر منهم قيمة أو سناً أو غيره!!

لقد وجدتنى حينئذ أتساءل : إذن ما الفائدة ؟! وكيف يمكننا أن نتقدم بهذا الشكل؟!

وبدأت من هذه النقطة المؤسة اليائسة أكتب عن الضعف الخلقى، عن ذلك الإستبداد الذى يطبق فى مصر كلما وجد المرء إليه سبيلاً. إنه حتى هؤلاء الذين يروجون للقيم الجديدة قيم الحرية واحترام الكرامة والاستقلالية وهكذا.. لم يستطيعوا أن يحملوا على عواتقهم الحمل كاملاً فى دنيا التنفيذ ودنيا العمل! فكيف نتقدم إذن!! لقد بدأت فى كتابة سلسلة من المقالات المهمة فى أواخر الثلاثينات ، مقالات تنتمى إلى ما أسميه «أدب المقالة» ؛ فالمقالة ليست مجرد معلومات أو أفكار يلقيها الكاتب! فلكى تكون المقالة أدبًا لا يكفى أن تكون مكتوبة بأسلوب أدبى أو بشكل جيد مثلاً أو أى شىء من هذا القبيل ، لأنك تستطيع أن تكتب فى علم الاقتصاد، وفى التربية والتعليم كيفما شئت بأسلوب جيد، ولكن لا يكون ما كتبت مقالة أدبية!!

إن أدب المقالة[٢] يقتضى كأى أدب آخر سواء كان قصة أو مسرحية، وكأى فن آخر ، يقتضى شروطاً أهمها : أن يكون هنالك ما يسمى "form" شكل! فماذا يعنى «الشكل» ؟! يعنى أنه لا بد للكاتب أن يختار وسيلة أخرى موازية ، فيها موازاة بين الفكرة التى يعرضها والصورة التى يريد أن يقدمها للقارئ بحيث تصل هذه الصورة عن طريق غير مباشر . كأن يستخدم الكاتب أسطورة من الأساطير القديمة أو قطعة من التاريخ الحقيقى يراها تصور ما يراد تصويره . أو حلم من الأحلام يحلمه فعلاً أو يزعمه ويدعيه، أو تأتيه خطابات هى من وحى خياله . إلخ . لكى يجعل منها وسيلة للتشكيل الأدبى للمقالة، ذلك التشكيل الذى يجعل المادة المعروضة من الأدب .

ولأذكر لكم من مقالاتى المهمة فى هذا المجال مقالتين من المقالات التى كتبتها فى أواخر الثلاثينات ؛ مقالة «البرتقالة الرخيصة» ، ومقالة «ذات المليمين» .

انتهت الثلاثينات وبدأت الأربعينات . ولنلاحظ أننى أقولها الثلاثينات والأربعينات وليس الثلاثينيات والأربعينيات كما يقال ، وذلك لأننى أعتقد أن ذلك هو الأصوب لغة ما دامت مترجمة وليست من أصل عربى؛ فكما نقول فى الإنجليزية Twenty (تونتى) ، Thirty (ثيرتى)، Forty (فورتى)، فينبغى أن نقول فى العربية العشرينات ، الثلاثينات، الأربعينات... إلخ.

أقول انتهت أعوام الثلاثينات وبدأت أعوام الأربعينات التى شهدت تحولات لا أظن أن هنالك عقداً من السنين قد حملها فى التاريخ الذى عشناه . وقد عشنا حمل كل هذه التحولات على كل المستويات من أعلاها إلى أدناها. لقد عايشناها جميعًا؛ فعلى المستوى العالمى كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت سنة ١٩٤٥م ، وما تبعها من نتائج جسام كان أهمها أن البلاد المستعمرة قد أخذت تستقل بعد تلك الحرب عن مستعمريها بلداً بعد آخر إلى أن انتهى الاستعمار بشكله المعروف نهائيًا . وأظن أن آخر هذه البلاد التى استقلت كانت ناميبيا! وعلى المستوى العالمى أيضًا أنشئت هيئة الأمم المتحدة، كما أنشئت بعدها بعام واحد تقريباً هيئة اليونسكو ، ثم ظهرت وثيقة حقوق الإنسان .

وكل هذه الأشياء أصبحت بالنسبة لنا كمصابيح للحياة ، كنا نبدأ بها حياة جديدة فى العالم .

أما على المستوى العربى ككل فقد أنشئت جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥م ، كما زرعت إسرائيل على أرض عربية. وكان هذا الحادث، حادث زرع إسرائيل حادثًا من شأنه أن يقلق من لا يحس لأنه كان بمثابة زلزال! إن أهم ما رأيته فى زرع إسرائيل هذا بعدما نضجت أكثر أننا كنا قبله ننفر من قوة العصر علمًا وصناعة .. ولما جاءت إسرائيل ووضعت فى أرضنا وضع العصر فى أرضنا !! فأصبح الخرج أشد

والموقف أصعب؛ إذ لم يعد بيننا وبين العصر بحراً علينا أن نعبره ، بل أصبح العصر معنا!! ومع ذلك فهو يستغل العصر وقوة العصر «يقصد إسرائيل» بكل جبروتها ونحن عُزّل .

ثم بدأت الحرب بين العرب وإسرائيل بعدما أنشئت إسرائيل بعد قرار التقسيم الذى كان فى نوفمبر ١٩٤٧م ، أنشئت كدولة وككيان فى مايو ١٩٤٨م .

لقد نشبت الحرب بيننا وبينهم ؛ الكتلة العربية كلها مع ما لا يزيد عن ٦٠٠ ألف أو ٧٠٠ ألف يهودى أيامها ! ومع ذلك انتصر اليهود وانكسر العرب!!

لقد أحدثت كل هذه الأحداث تحولات جذرية. ومن هذه التحولات على مستوى مصر كان القلق الشديد جداً الذى انتاب الشباب المثقف خصوصاً فيما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وثورة يوليو ١٩٥٢م .

وأذكر جيداً ذلك الشباب المصرى المتحمس ، وأولئك الكُتاب المتحمسون الذين كانوا يخرجون الصحيفة تلو الصحيفة، والمجلة تلو المجلة! وكانت كل صحيفة تخرج لتقول شيئًا فتغلق، فتظهر أخرى لتقول شيئًا آخر فتغلق. وكذا الأمر فكل مجلة تخرج لتقول شيئًا فيتم غلقها، فتظهر مجلة أخرى لتقول شيئاً آخر فيتم غلقها هى الأخرى .. وهكذا .. وكانت كل هذه الحركة فى تلك الصحف والمجلات متجهة

تقريبًا نحو «الإشتراكية»! ومع أن هذه الكلمة كانت مُحرمة أنذاك لكنهم أخذوا الجرأة فى أن يقولوها ثم تغلق صحفهم ومجلاتهم!!

أذكر أنه لما نشبت الحرب بيننا وبين إسرائيل فى عام ١٩٤٨م ، كان الضباط المصريون من أصحاب ثورة ١٩٥٢م أو جمال عبد الناصر على الأقل، كانوا فى تلك الحرب .

إن ما قام به جمال عبد الناصر ، وكل ما عمله كان ترجمة لذلك القلق الذى أبداه الشباب المثقف فى السنوات الخمس السابقة على الثورة.

لقد كانت السنوات الخمس من عام ٤٥ إلى عام ١٩٥٠م تحديداً، قد شهدت نشاطاً ثقافياً من نوع فريد ، ومن نوع غامض أيضاً !!

وقد كان فحوى هذا النشاط الثقافى الغامض «هوجة كلامية»، «هوجة» كتابية وطموحات أقرب إلى الأحلام التى يعبر عنها المتكلمون فى كلامهم ، والكتاب فى كتاباتهم . وقد ترجم عبد الناصر بثورته ، ترجم ما نادى به هؤلاء الناس إلى واقع غير وجه المجتمع !

أما على المستوى الرابع ، وهو المستوى الشخصى . فقد حدث التحول العظيم فى حياتى، حدث هذا التحول حينما أرسلت فى بعثة إلى انجلترا للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة . ولم يكن هذا أول سفر لى إلى إنجلترا؛ فقد ذهبت إليها قبل ذلك فى بعثة قصيرة سنة

١٩٣٦م ، فشاهدت إنجلترا قبل الحرب ، وشهدتها فى الحرب . وفى كلتا الحالتين حدثت لى صدمة حضارية، صدمة أستطيع أن أسميها صدمة شديدة جداً .

لقد تركت مصر وعندى عنها صورة دقيقة جداً وخاصة عن الناس وعن تعاملاتهم اليومية التى تتم بطريقة طبيعية وبدون تكلف. ومن هذه التعاملات الغريبة أن يهين المصرى، المصرى. فهذا أمر كان لا يحرك ضميراً لأحد!! كل المسألة أن هذا أكبر من ذاك فى الوظيفة ، أو أكثر منه مالاً أو أكبر منه فى المنصب.. إلخ . هذا الأكبر كان كأنما قد أعطى رخصة إلهية لأن «يدوس» بقدميه على من هم دونه!! ومن هم الذين دونه؟! إنهم كانوا إما عمالاً أو فلاحين!! فعلى سبيل المثال كان أى عامل حرفى حينما يأتى إلى بيت من بيوتنا ليقوم بإصلاح عطل كهربائى أو حنفية مياه . كان هذا العامل يعامل من صاحب البيت أو من ربة المنزل معاملة فيها تعالى رغم أنه لا يوجد أى مبرر لهذا التعالى ! والأغرب أن هذا العامل الحرفى كان يتقبل هذا الأمر ويجد أنه «وضع طبيعى» !!

هذا الوضع ، وهذا الموقف الاجتماعى لا يمكن قبوله عند أى ضمير حى وخصوصًا عند ضمير متدين يعلم أننا كلنا بشر أمام الله ، وكلنا على بُعد واحد من الشمس . لكن على أى حال ، فقد كان هذا حالنا فى مصر!!

وعندما ذهبت إلى إنجلترا وجدت صورة أخرى تمامًا . فقد وجدت العامل يتحدث مع عميد الكلية التى يعمل بها وكأنه واحد من أصدقائه. وجدت أنه ليس هناك شيء اسمه : «هات قهوة»!! فهناك فى ركن من أركان حجرة العميد منضدة عليها أدوات عمل القهوة ، فإن أراد احتساء فنجان قهوة، فهو الذى يقوم بعملها لنفسه!؟ أما أقوى منظر رأيته فى هذا السبيل ، فكان منظر وزير فى وزارة العمال التى أتت بعد الحرب. فقد رأيت الوزير «نيول بيكر» وكان مشهوراً بقوة الشخصية . رأيته خلال زيارتى له بعدما طلبته فى خدمة معينة لى، رأيته فى حوالى الساعة الثالثة ينزل مع كل موظفى وعمال الوزارة ليحتسوا الشاى!

رأيتهم جميعًا وهم يقفون فى طوابير وهناك منضدة وضعت عليها أدوات الشاى والقهوة .. رأيت كل واحد منهم يقف فى الطابور وفى يده طبقًا وشوكة وسكينة وفوطة ورقية . وحينما يصل الواحد منهم إلى المنضدة يطلب ما يريد إن كان شايًا أو قهوة ثم يمشى!! رأيت هذا الوزير يقف فى هذا الطابور الطويل وأمامه أحد السعاة فى وزارته ، والغريب أنه لا الساعى أقلقه أن الذى يقف خلفه هو الوزير ، ولا الوزير أقلقه أن الذى يقف أمامه هو أحد السعاة!! لقد جعلنى هذا الموقف أتأمل مع نفسى الأمر مدة طويلة!! ؛ إذ من الجائز جداً أن ينشأ فى مصر وزير له من ثقافته ما يعطى للساعى فى وزارته هذا الحق . ولكن المصيبة الكبرى

أننى تركت مصر والساعى فيها لو وجد نفسه أمام وزير أو من هو دونه يضطرب وربما يقع على الأرض من الفزع و«الخضة» !!

لقد كانت الصدمة الحضارية عندى من أمثال هذه الأشياء التى يبدو منها الفرق الحضارى بين المعاملة بين البشر على أساس احترام إنسانية الإنسان مهما كانت درجته الوظيفية أو مهنته أو ما يملكه .. إلخ فى أوربا، وبين هذا الاستبداد بالبشر والتعالى من بعضهم على بعضهم الأخر لمجرد أن ذلك يملك المال أو يملك المنصب الأعلى الذى كان سائداً فى مصر فى تلك الأيام!!

وبالرغم من وجودى فى البعثة وانشغالى بدراسة المقالة الأدبية التى هى أقرب إلى الرمز، إلا أننى أرسلت الكثير من المقالات لتنشر فى مصر . وكانت هذه المقالات هى التى جمعت فى كتاب صغير أطلقت عليه اسم «جنة العبيط» .

وبالطبع فقد أتاح لى وجودى هناك الإتصال أكثر وأكثر بعالم الفكر الأوربى عامة والإنجليزى خاصة . وقد وجدت الفارق بعيد جداً جداً بين المثقف المصرى كما كنت أعرفه حتى كبارنا وروادنا وبين المثقف الإنجليزى .

وقد كان من أكثر ما لفت انتباهى فى تلك الأثناء ونحن نعيش فى عصر العلم – فمن المفروض أن يسود بين الناس منهجًا فى التفكير

يتناسب مع هذا العلم ، وكونى أفكر تفكيراً علميًا يقتضى أن تكون اللغة، العبارة، الجملة مما يمكن تطبيقه بمعنى أنه ينبغى أن تكون العلاقة بين الجملة وتطبيقها على أرض الواقع مباشرة ، وألا تكون هنالك تلك المفارقة البعيدة جداً بين ما يقال وما يكتب من ناحية ، وبين الواقع من ناحيةأخرى؛ فمثلاً عندما تترجم مقالة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية ستجد أن هناك حواشى كثيرة لا تدخل فى المعنى ، على حين أنه يحدث العكس حينما تترجم من الإنجليزية إلى العربية؛ لأن الذى ستجده من زوائد قليل جداً ! .

إن الفكر العلمى ليس من الضرورى أن يكون عند العالم فى المعمل فقط، فالأسلوب العلمى فى التفكير عندما يتسرب نقطة نقطة إلى الشعب ليكون هو اسلوبهم فى الكتابة ، وفى الكلام سنجد أن الفرق قد تراكم بمرور الوقت لنجد أن هناك من يعيشون فعلاً فى دنيا الواقع ، بينما نجد هناك غيرهم لا يعيشون فيها ولا عن طريق لغتهم[٣] !!

لقد تراكم كل ذلك عندى، فاتجهت نحو دراسة ما كان قد ظهر حديثًا فى الفكر الأوربى نفسه، ألا وهو ما يسمى بالوضعية المنطقية أو التجريبية العلمية وهذا مما أسىء فهمه إساءة غريبة!! وتوضيحه مما يهمنى جداً.

إننى عندما رجعت من البعثة، وبدأت التدريس فى الجامعة، تقرر أن أدرس «المنطق» . إنها كانت مادة صعبة ولذلك أعطوها لى . ورغم أنها لم تكن من تخصصى فقد قبلت تدريسها . وقد أراد بى الله خيراً لأننى اكتشفت أنها مادة مهمة ومفيدة فى تحقيق ما أطمح إليه ، لقد وجدتها قريبة التناول وسهلة الإستخدام لما أريد أن أضغط عليه وأنبه إليه فى حياتنا الفكرية.. إن بها إجابات عن أسئلة من قبيل: كيف يمكن أن تصيغ العبارة السليمة حينما تكتب فى موضوعات جادة بحيث تكون عبارة علمية الطابع ، عبارة ليس بها حشو أو زيادة عن المطلوب! ، عبارة يكون فيها تلك الموازاة بين الجملة والأمر الواقع الذى جاءت الجملة لتعبر عنه !

إن هذا مما تدعو إليه الوضعية المنطقية . إن هذه الوضعية المنطقية ليست مذهباً فلسفياً لأنها ببساطة لا تغطى الموضوعات التى تهم الإنسان مثل موضوعات الكون ، والله ... إلخ .

إنها فلسفة لغة، فلسفة لغة علمية. وأصحابها يعرفون تماماً أنه ليس العلم وحده هو حياة الإنسان . ولكن العلم جزء مهم من حياة الإنسان . وينبغى أن يكون لهذا الجزء المهم – العلم لغته الخاصة ، وله صياغته التى تتناسب مع ما يريد التعبير عنه . أما المجالات الأخرى من آداب وفنون .. إلخ فهى أيضاً لها تعبيراتها الخاصة مثل التعبيرات الوجدانية

كما هو الحال فى لغة الشعر التى تتميز باستخدام طرق لغوية مختلفة من الطرق التى تستخدم فى العلوم.

وأريد هنا أن أؤوكد على حقيقة من الحقائق التى تزيدنا وضوحًا ومعرفة. أريد أن نلاحظ أنه فى الأربعة قرون التى عاشتها أوربا بعد النهضة كان العلم الطبيعى - وهذه نقطة مهمة جداً أرجوكم الإنتباه إليها لأنها محورية لمن يريد أن يغير حالنا فى حياتنا الفكرية - مختلفًا تمامًا عن الصورة التى درجت عليها البشرية قبل ذلك؛ فمن أول حياة البشرية فى التاريخ إلى القرن السادس عشر الميلادى كان الفكر الإنسانى يتم بصورة مختلفة عما بدا عليه منذ هذا القرن؛ كان المفكر قبل ذلك القرن أياكان هو وأيا كان موطنه عربيًا أو غير عربى، كان يفكر بمنهج واحد - هو المنهج الذى لم تشهد البشرية غيره قبل القرن السادس عشرب باستثناءات قليلة لا تكاد تذكر - وهذا المنهج كان يستند على أن يكون هناك «نص» أو «كلام» أو «عبارات» . ويكون التفكير هو أن أنسل أو استخرج من هذا النص أو من هذا الكلام أو من تلك العبارات ما يمكن أن يؤخذ منها من نتائج، بمعنى أن أخرج من جوف هذا النص ما يمكن أن يلده من نتائج. فإذا ما أخرجت هذه النتائج اللازمة عن هذه العبارات فى ذلك النص أعتبرها صحيحة . وذلك لأننى افترضت منذ البداية أن هذا «النص» الذى أخذت منه هذه النتائج لا بد أن يكون

صحيحًا. هذا هو نمط التفكير الذى لم تكن تعرف البشرية نمطًا سواه حتى القرن السادس عشر . ولحسن الحظ فى تلك الفترة الطويلة جدًا أن العلوم الرياضية كانت تواكب هذا النمط من التفكير وتجرى مجراه . فالعلوم الرياضية غير العلوم الطبيعية؛ فهى أى العلوم الرياضية تجرى هذا المجرى لأنها تضع لنفسها مسلمات ثم تولد من هذه المسلمات نتائجها، فتكون هذه النتائج هى النظرية ، وهذا ما حدث مثلاً فى هندسة اقليدس .

ولذلك برع العرب وتفوقوا فى الفكر لأنهم كانوا سبّاقين وأسبق من أى أمة أخرى فى هذا المنهج . فلقد برع العربى جدًا فى هذا التوليد من النص؛ توليد النص نتائجه بما فى ذلك النتائج الرياضية فى العلوم الرياضية . ولذلك كان منهم الرياضيون العظام ، والفقهاء العظام لأن الفقه ما هو إلا استخراج نتائج وأحكام من النص القرآنى أو من نص الحديث الشريف . كل ما قدمه العرب كان يدور حول هذه الطريقة ، وكذلك كل ما قدمه من سبقوقهم .

لكن منذ أوائل النهضة الأوربية ابتداءً من القرن السادس عشر كسرت أوربا هذا الطوق. وبدأت لا أقول تحل محل القديم شيئًا جديدًا، ولكن بدأت تضيف؛ فالقديم لا شك منه ما هو مطلوب، والفكر فى حاجة إلى ذلك التوليد الذى أشرنا إليه . إن الأوربيين كسروا الطوق

ليقرأوا ظواهر الطبيعة . هذا هو كل الفرق بيننا وبينهم وحتى الآن ... هو يقرأ الحقيقة كما هي واقعة في الطبيعة ، الصوت ، الضوء، الجاذبية، الكهرباء، المغناطيس، كل هذه الأشياء تُقرأ في الطبيعة وتستخرج قوانينها. وعندما نستخرج قوانينها نستطيع أن نُلجمها بلجام هذه القوانين ونستخدمها في صالحنا، صالح الإنسان . ومن هنا تتطور المسألة، يتطور العلم ويصل الأمر إلى ما وصلوا إليه الآن في استخدام القوانين الطبيعية . إن هذا الاستخدام لقوانين العلم جعلهم يطيرون في الهواء، ويغوصون في الماء، ويصنعون الأقمار الصناعية وغيره من كل ما نسمع عنه الآن ..

هذا ما أضافوه ، أما نحن فقد وقفنا ، بل على العكس، لقد تدهورنا؛ فهم نهضوا بهذا الطريق الجديد الذى أضافوه ولا أقول أحلوه محل القديم، لقد أضافوا قراءة كتاب الطبيعة إلى جانب قراءة المسطور بالقلم. أما نحن فقد تدهورنا لأنه وبالصدفة جاء الفتح العثمانى ، جاء الأتراك وأخذونا فبدأنا الدخول في عصورنا الوسطى!

ولنلاحظ هنا أن ما يسمى عادة بالعصور الوسطى هى العصور الوسطى الأوربية ولا يصح أن نجعلها عصوراً وسطى لنا ولهم فقد كنا نحن في تلك العصور مزدهرين ومتقدمين بينما كانوا هم متخلفين .

إن عصورنا الوسطى هى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، فهذه القرون لم يكن فيها اطلاقًا إلا التكرار لما قد قيل من قبل؛ فعلماء الأزهر عندئذ كان منهم من يشرح كتاب ، وكان منهم من يُهمش على كتاب، ومنهم من يلخص كتاب كانت هذه هى مهمتهم وكان هذا هو ما شغلهم ولا توجد أى إضافة جديدة!! أقول ذلك وأنا ممتلئ باليقين لأننى تحققت منه بنفسى . فقد وجدت بالمصادفة فى مكتبة جامعة الكويت حينما كنت هناك أربعة أجزاء من موسوعة أصدرتهم شركة واحدة بشكل موحد رغم أن كل جزء من هذه الأجزاء قام بتأليفه مؤلف مختلف . الموسوعة كانت عن علماء المسلمين فى القرن السادس عشر، والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . وقد اهتممت خاصة بالجزء الخاص بالقرن الثامن عشر السابق على حملة نابليون على مصر لأعرف ماذا كان فى الأزهر عندما جاءت أوربا إلى بلادنا؟!

وقد استعرضت كل ما ورد فى هذا الجزء صفحة، صفحة لأننى صممت على أن ألتقط فقط علماء المسلمين المصريين . والسبب الذى جعلنى أركز على ذلك هو عبارة وردت فى «الميثاق» الذى أصدرناه عام ١٩٦٢م تقريبًا. لقد جاء فى تلك العبارة أننا نعجب من هؤلاء الذين يقولون أن نهضتنا بدأت من نابليون وحملته على مصر مع أنه فى القرن الثامن عشر كان الأزهر يعج بالعلماء!

فكان التساؤل : أين هم هؤلاء العلماء؟! ومن هم؟! . لقد التقطت من تلك الموسوعة هؤلاء العلماء واحداً واحداً وتعرفت على أعمالهم، فوجدتها كما قلت لحضراتكم كلها شرح، وتهميش، ودرس الكتاب الفلانى ودرسه .. إلخ. هذا كل ما كانوا يصنعونه!

لقد كان هذا جهدى فى الخمسينات . وإذا ما انتقلنا إلى الستينات، وجدت أن أهم ما فيها كان ما عرضته علىّ وزارة الثقافة المصرية. لقد عرضوا علىّ أن أخرج مجلة وأن أشرف عليها . وقبلت المشروع واقترحت الاسم وكان «الفكر المعاصر» .

وجعلت من مهمتى فى المجلة إلى جانب الإشراف، كتابة مقالة موسعة كل شهر. وكنت فى هذه المقالة ألتقط أحد المفاهيم السائدة فى مصر آنذاك. وكلها كانت مفاهيم اشتراكية. ولا بأس فى ذلك. فأنا لست رجل سياسة أبداً ولا أحب أن أكون حقيقة! إن مهمتى كانت تتلخص فقط فى تحليل الأفكار؛ فعندما أجد فكرة ملأت الأجواء أحللها كما لو كنت أقوم بتشريح ضفدعة. لم يكن من المهم عندى أبعادها السياسية فقد كنت أقوم بمهمتى الفكرية بعيداً عن السياسة . لقد كانت مهمتى تتركز حول محتوى هذه المفاهيم! ماذا تحتوى عليه فكرة اليسار اليمين، صراع الطبقات، الإقطاع والإقطاعية إلخ. هذه الأفكار والمفاهيم التى كانت شائعة . لقد كنت أحلل هذا الكلام تحليلاً أمينًا، تحليلاً

منطقيًا سليمًا؛ ماذا تعنى هذه المفاهيم بالضبط؟! وما هى عناصرها؟! وفى معظم الأحيان كنت أعرض التحليل وهو تحليل كان ينتهى بالقارئ عادة أو فى معظم الحالات إلى أنها فارغة أو متناقضة!! فكيف لى أن أحدث تغييراً فى مجتمع بأكمله على أساس أهوج؟! لقد نقلت هذه المفاهيم عن الغرب، ولم تفهم لأنها نقلت نقلاً سطحياً وفهمت فهمًا سطحياً ثم بنى عليها التغيير ، فكان التغيير نفسه غير قابل للدوام!!

فلا غرابة إذن أن يحدث كل سنة أو سنتين تغييراً ، وهذا طبيعى لأن التطبيق يُظهر مواضع العيب!! .

وننتقل الآن إلى الفترة الباقية وهى السبعينات والثمانينات إلى اليوم . ونستطيع أن نقول إجمالاً أن الكتب التى أصدرتها وهى كثيرة فى هذه الفترة كلها كانت نتيجة ماعبأت به نفسى طوال السنوات الماضية . لقد كانت سلسلة من الكتب عن الثقافة العربية الآن . وكانت القضية الأساسية المطروحة فيها هى هذه القضية الكبرى التى ملأت الكتب من نواحى مختلفة ؛ كيف نوفق؟! أى كيف نوفق بين التراث الذى لا بد منه لكى نكون عرباً أو مسلمين ، وبين ثقافة العصر الذى لا بد أن نعيشه، والعصر هو عصر العلم ، وعصر لغة العلم؟! فهل هناك تناقض بين أن أكون مسلماً مصرياً وعربياً، وأن أكون عالماً؟!

ولتلاحظوا الفرق الكبير جداً بين أن أحفظ العلم وبين أن أنتجه مع من أنتجوه!! فليس كل من حفظ العلوم صار عالماً !! فلكى لا تخطئ لابد أن نفرق بين العلماء وحفظة العلم؛ العالم هو الذى ينتج علماً يعنى يضيف فى المجال الذى تخصص فيه ويقول أنه عالم فيه!!

أنا أدعى، وأدعى وكلى أسف أنه يستطيع من يشاء أن يكتب تاريخ العلم المعاصر دون أن تذكر مصر فى سطر واحد ؛ لأنها لم تفعل ولم تنتج ما يُذكر!! لقد أخذت ببراعة ما أخرجه الآخرون وأخرجت أساتذة ومعامل لكنها لم تخرج علماء أو إنتاج علمى يمكن أن يذكر!! فالحركة العلمية عندنا مجرد ظل قائم لشيء ولد هناك ولم يولد عندنا!!

ولا أمل إلا أن نشارك فى العلم مشاركة جادة كما فعلت اليابان أو الجنس الأصفر كله . إن اليابان تعطينا الدرس ، فقد عرفت كيف تضيف الأسرة إلى المعمل ، عرفت كيف تنقل تقاليد الأسرة التى هى صميم الثقافة اليابانية ليصبح المعمل أسرة أخرى ولا يوجد تناقض بينهما ...

على كل حال .. هذه هى حياتى .. وقد قيل لى أننى أطلت فمعذرة للإطالة.

(تصفيق)